

ويفتح نافذة قد يدخل منها رجل بجناحين، يعانقه، ويطيّر بعيداً نحو طفولته، يُدنيه فيرتبكان، وتهبط فوقهما أخيلة مثل غزاة رحلوا، ونهايات مثل قصائد بشر مُسدلين على بشر أظهارٍ مفتونين.

عبد المنعم رمضان (١٩٥١ -)

«داود باشا» غريب الدارين ومأساة الهوية الممزقة في الدراما المصرية



شخصية داود باشا

الشعبي، حيث يجد في أحضان التصوف سكينه غابت عنه طويلاً. داود باشا بن يزيد المصري وابن فرجة السماكة، تجسيد حي لصراع الهوية في مصر الحديثة. هو ابن الصعود الطبقي الإجباري في حالته والتمزق بين الأصالة والمعاصرة، بين الجدور التي تربي فيها، والفروع التي انتزع إليها بالقوة. شخصية مفتوحة على التأويل مشروخة في صميمها، تتأرجح بين عالمين لا يجد في أيّ منهما وطنًا. اختطف من تناغم الطبقات الشعبية، من سكينه الحارة وعقوبة الحب الطفولي، نشأت بينه وبين «نعمة» قصة حب بريئة وحياة كان من الممكن أن تمتد في مساره الشخصية لا لكن عساكر الوالي خطفوه كما خلفت المستوى النفسي كان كابوساً ممتداً. ذلك الاختيار الذي لم يكن له يد فيه، مزقه تمامًا، وجعل منه شخصية لا تعرف لأي طبقة تنتمي، ولا بأي قيم تعيش. عاش غريبًا، ومات غريبًا، لا هو من طبقة البشوات حقًا، ولا هو ابن الغورية كما كان. تمزق داخل لا تجبره المناصب ولا يشفيه التعليم ولا السفر.

د. عبد الكريم الحجراوي

سينوفينات بيتهوفن، بينما تجلس جاريته تمسك له الترجيلة التي يدخن منها. مشهد بليغ يصور مزاجه المتشظي: بين الموسيقى الغربية الكلاسيكية وطقوس الحارة المصرية، بين الأرستقراطية والطبقة الشعبية، بين العقل والحنين. وتبلغ درامية الشخصية ذروتها حين يعيد محسن زايد توظيف قصة الحب القديمة: بعد وفاة عطا المراكبي، يتقدم داود لخطبة هدى هانم، حبه القديم، في إحالة ذكية إلى رواية «الحب في زمن الكوليرا». لكنها ترفضه، لتزيد من مأساة غريته، رغم أنها الوحيدة القادرة على فهمه بسبب ثقافتها وأسفارها. ويصل المسلسل إلى قمة إنسانيته في مشهد مؤثر، حين يُصر داود على رؤية حفيداته من ابنه، ويحتضن إحداهن باكيًا. هذا المشهد يكتسب بعدًا أعمق لمن يقرأ رواية محفوظ، التي تخبرنا أن داود أنجب ثلاث بنات توفين وهن صغيرات. لو أشار المسلسل إلى هذا الحدث، لتحوّل المشهد إلى لحظة إنسانية نادرة، يبكي وهو يحتضن حفيدته لأنه لأول مرة يرى فيها ملامح بناته الراحلات. حكم على داود أن يظل غريب الدارين: لا الأرستقراطية تتقبله تمامًا، ولا طبقة الأولى تعيده كما كان. في النهاية، ينسحب من العالم، ويعود إلى الغورية، باحثًا عن السلام في حضرة آل البيت، في الموالد والحضرات، في التصوف

نفسية أو ثقافية، بل اجتماعية الطبقات بامتياز. خطف صغيرًا على يد عساكر الوالي، فاقطع من بيئته الأصلية في الغورية، ثم عاد إليها لبرهة قبل أن يسافر إلى فرنسا لدراسة الطب. عاد متعلمًا ومتقنًا، وترقى في السلم الاجتماعي حتى نال الباشوية، لكنه ظل يعاني من شرخ داخلي لم يلتئم. فهو ابن العطار وفرجة السماكة، لكنه في الوقت ذاته طبيب متعلم من فرنسا، يعيش بين طبقتين لا ينتمي تمامًا لأي منهما. هذا الانقسام يتجلى حين يتقدم لخطبة فتاة تركية ترفضه بسبب أصله، فيضطر للزواج من سنية الوراق هانم، التي قبله أهلها بوصفه مشروخًا اجتماعيًا واعداً. لكن داود، رغم ترقّيه الظاهري، ظل يحمل داخله الغورية، قيمها، لغتها، ناسها. ينفجر هذا التناقض في مشهد مفصلي حين يرقص الخديوي مع زوجته، فلا يتذكر تعليمه ولا مكانته الجديدة، بل يعود لا شعوريًا إلى جذوره، إلى ما نشأ عليه من مشاعر. وحين يتزوج من الجارية السوداء «جوهر»، يعلن تمردته النهائي على القيم الطبقيّة والتمييز الاجتماعي، ويصدم من حوله بقرار لم يكن متوقعًا من باشا. مشهد بليغ أحد أهم المشاهد الرمزية في المسلسل، مشهد الباشا وهو يجلس يستمع إلى

ولا تجد في ذاتها أي انتماء إلى وطنها رغم مُعاشتها لتورة ١٩١٩، لولا تعصّب سطحى لموقف أبيها السياسي انطلقت إليه من منطلق الكبرياء والأسرة. عناية استثنائية هذه الشخصية التي رسمها محفوظ روائيًا في أجزاء متأثرة من روايته كما رأينا لم تكتمل إنسانيًا إلا عندما أولاها محسن زايد في معالجته الدرامية للتلفزيون عناية استثنائية، نفخ فيها من روحه، حتى تحوّلت إلى واحدة من أكثر الشخصيات حضورًا وعمقًا في تاريخ الدراما المصرية، مضرًا للأمثال ومجالًا للقراءات الممتدة، مغيرًا الكثير من التفاصيل بها. في أيام الجامعة، كنت أربط بين داود وشخصيات أخرى جمعت بين التمزق الثقافي والاعتزاز الداخلي، وهم «إسماعيل» في «قنديل أم هاشم» ليحيى حقي، و«مصطفى سعيد» في «موسم الهجرة إلى الشمال» للطيب صالح. وأضيف ثالثهم «داود المصري» كما صاغه محسن زايد في المسلسل، جميعهم أبناء ثقافات مهجنة، عاشوا تمزق الانتماء بين المشرق والغرب، بين الأصل الشعبي والطبقة الجديدة، بين ما نشأوا عليه وما حُمّلوا به بعد التعلم والسفر. لكن ما يجعل داود المصري حالة درامية متفردة، هو أن معاناته ليست فقط

حين صاغ نجيب محفوظ شخصية «داود باشا بن يزيد المصري» في روايته «حديث الصباح والمساء»، ترك ملامحها الأولى مفتوحة على احتمالات عديدة كما هو الحال مع جميع أبطالها، في رواية تحكي تاريخ خمسة أجيال من أسرة يزيد المصري، منذ دخول الحملة الفرنسية حتى ثمانينيات القرن الماضي.

يحكي نجيب حكاية داود في نقلات سريعة خطفه وهو طفل، بأنه قد وقع داود في مصيدة التعليم ونجا عزيز بمعجزة ظل يحمده الله عليها حتى آخر عمره»، ثم سفره إلى فرنسا وعودته منها طبيبًا، ليجد والديه قد توفيا في غيابه، ومن تقدمه لخطبة إحدى بنات الأتراك «تركية بدرب قرمز... آل رأفت» فأشار إليهم قائلاً: لعلهم يرضون لبنتهم بطبيب عائد من فرنسا»، لكن داود رُفِضَ باعتباره فلاحًا حقيراً، ولم يشفع له علمه ولا زيه ولا وظيفته... وتألم الشاب»، فتم تزويجه أسرة الوراق، أسرة من أصل مصري شامي، ووجدوا ضالته في حفيدة الوراق الكبير سنية الوراق، الذين رُحبوا بالعريس، وتم الزفاف، ومضى داود بعروسه إلى بيت جديد بالسيدة، وقد أنجب منها ولداً - عبد العظيم - وثلاث بنات اختطفهن الموت صغاراً.

يزيد المصري، حلت جناحه الحريمى فرجة الصيد، ونعمة عطا المراكبي وسنية الوراق، والجارية آدم في قبرها الخاص. لم يكتف نجيب بهذه الترجمة الصغيرة لداود وجاء جانب آخر منها في ترجمته لابنه عبد العظيم فيصف والداه - أي داود باشا - بأنه «أب يُعتبر من الرجال المودودين في عصره». وكذلك «خالط - أي عبد العظيم - الأجانب من أقران أبيه الذين كثيراً ما تناولوا عشاءهم على مائدته وتبادلوا الأنخاب. تقلب بين التراث والمعاصرة». هذه الحياة الإفريقية طغت على أسرة داود فينقل محفوظ عن ذلك «إذا ذهب عمرو إلى فيلا السرايات فتواتيه غريبة في الجو «الإفريقي» الذي يسود السلوك والعبادات، من ذلك أن عبد العظيم باشا كان يفتح شهيته عادة بكأسين من الويسكي، أو يخاطب كريمته فهيمة وعفت أحياناً بالفرنسية». ذلك الاعتزاز يمتد إلى جيل الأحفاد، فقد تعلمت عفت ابنة عبد العظيم باشا بن داود باشا بن يزيد المصري الفرنسية والإنجليزية والأدب وفرن البيت والموسيقى، وتشربت روحها بثراث غريب حتى ليخيل للرائي أنها إفرنجية ذوقاً وعقلاً وتراثاً. ومع أنها لم تتلق بكلمة تخدش إيمانها إلا أنها عاشت حياتها وهي تجهل دينها وتراثها جهلاً تاماً.

الشخصية الحقيقية كان هناك توافق بين داود زوجته فرغم جمالها ودرجتها الاجتماعية وتعليمها الأولى الساذج، لم تكن تختلف اختلافاً جوهرياً عن أمه فرجة السماك، ولا عن زوجة أخيه الأكبر نعمة المراكبي. ويكشف نجيب أن داود لم يتحرر من تقاليد الأسرة والبيئة، فكان يزور بيت الغورية بدافع الحب والواجب معاً، وهناك ينسى شخصيته المكتسبة تماماً فيجلس إلى الطبلية ويأكل بشرائه السمك والطعمية وثريد العدس والفسيح والبصل الأخضر، ويتابع بعين العطف والمودة النامية بين عبد العظيم من ناحية وبين رشوانة وعمرو وسرور من ناحية أخرى، ويصور الحسين... في تلك الأوقات كان يرتد إلى داود الأول ابن يزيد المصري وفرجة الصيد، ابن الغورية وروائعها الزكية النافذة ومآذنها السامقة ومشربياتها المسرلة بالتاريخ. ولما بلغ الدكتور الباشا الخمسين عشق جارية سوداء، وتزوج منها، مُحدثاً في الأسرة دهشة ومُثيراً أقبالا. وقد اختار لها مسكناً خاصاً في السيدة. ويختم محفوظ قصته بأنه امتد به العمر حتى عصر الاحتلال وعاصر مع أخيه الثورة العرابية، وأيداهما بالقلب، وتجرعا مرارة سقوطها، ورحل الشقيقان في عامين متعاقبين في أوائل عهد الاحتلال، ودُفنا جنباً إلى جنب في القبر الذي افتتحه